﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَيْنَ تقديرِ القَضاءِ وزوالِ متاعِ الدُّنيا تسليمٌ لأمْرِ اللهِ تَعالى يَسْكُبُ السَّكينَةَ عَلى القُلوبِ

بَعْدَ أن بيَّنَ اللهُ سبحانه في الآية السّابقة أنَّ ما يصيب الإنسانَ من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس، قد كُتِب عليه في سابقِ القَضاءِ بقولِهِ تَعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ؛ أتْبَعَ ذلك ببَيانٍ بديعٍ يُهَوِّن به وقْعَ النَّوازل على قلوبِ المُؤْمنين بقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ ليكونَ ذلك مَنْبَعَ سعادَتِها، وسكينةَ أفئِدَتِها؛ إذ تُدْرِكُ أنَّ كلَّ ما جرى مقدَّرٌ بِحِكْمَةِ العَليم الخبيرِ، فلا تَأْسَى على ما فاتَ، ولا تغترَّ، وتَفرح بما أُعْطيَت مِن مَتاعٍ زائلٍ، ولذَّة فانيَةٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأْسَوْا۟﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، وهو لفظٌ فريدٌ في جميع القرآن الكريم من جهةِ المادَّة والصّيغة، والجذر اللُّغويُّ منه: (أسي) أو (أسا) أو (أسو)، ومعنى أسيَ: حزنَ[2]، ومنهُ: آسَيْتُ الرَّجلَ، وواسيتُه مواساة، "والإسوة والأُسوة - بالكسر والضَّم -: لغتان، وهي ما يَأْتَسي به الحزينُ، يَتَعزَّى به"[3]، والأصل اللُّغويُّ - للهمزة والسّين والياء - دالٌّ على الحُزْن[4]، وحقيقتُهُ:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 477.
(2) الخليل، العين: (أسي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (أسا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).

إتّباعُ الفائتِ بالغَمِّ، يُقال: أسَيْتُ عليه، وأسَيْتُ له[1]، ومعنى ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ في الآية الكريمة: لئلّا يغلبَكُم الحزنُ[2]، أو يشتدَّ عليكم الأسى على ما ضاعَ مِنْكُم، أو لَم تُدْرِكوهُ.

2) ﴿فَاتَكُمْ﴾: فعلٌ يدلُّ على المُضيِّ، وجذره اللُّغويُّ: (فوت)، والفَوْتُ بِمَعْنى السَّبْق، ومنه: أن يفوت الإنسانَ الشَّيءُ، والأصل في الفاء والحرف المعتلِّ والتّاء: دلالتُه على عدَمِ إدراك الشَّيء والوصولِ إليه، وبُعْد الإنسانِ عمّا يريد الوصولَ إليه[3]، يقال: فات الأمْرُ، ومعناه في الأصل: فات وقتُ فِعْلِه[4]، ومعنى ﴿فَاتَكُمْ﴾ في الآية محلِّ الشّاهد: ما لَم تُدرِكْهُ مِن نِعَمِ الدُّنيا[5].

3) ﴿تَفْرَحُواْ﴾: فِعْلٌ يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وجذره اللُّغويُّ: (فرح)، والفرحُ: كلُّ ما يسرُّك، ومن معانيه الأخرى: البَطَر، والفاء والرّاء والحاء: أصل يدلُّ على ما يُقابِل الحُزْنَ، وإذا انشرح الصَّدرُ بلذَّة عاجلةٍ؛ سُمّي ذلك فرحًا، ويغلب أن يكون في اللَّذّات الدُّنيويَّة، ولا سيَّما اللَّذّات البدنيَّة، وقد يُستَعمَلُ الفرَحُ في القرآنِ الكريم لِمَعانٍ متعدِّدَةٍ كالأشَرِ والرِّضا والسُّرور، والفرِحُ: مَن يَجِدُ في قَلْبِه خفَّة؛ إذِ الفَرَحُ: إخراجٌ للغَلَظِ والثِّقل من الفُؤاد، فيغدو الصَّدرُ منشرحًا بتخلُّصِه ممّا يُثْقِلُه، ويُهمُّه[6]، والفرح: "انفتاحُ القلب بما يلتذُّ، وقيل: هو لذَّة في القلب أعظمُ مِن ملاذِّ الحواسِّ"[7]، ومعنى ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ في الآية: لئلّا تُسَرّوا سرورًا مُبطِرًا بما أنعَمَ اللّهُ تَعالى بِهِ عَلَيكُم، وأعطاكُم[8].

4) ﴿مُخْتَالٍ﴾: اسمُ فاعلٍ على وزن (مُفْتَعل)، حصلَ فيهِ إعلالٌ، وقد ورد هذا الوصفُ في مَوضِعَينِ آخَرَينِ مِن الكتاب العظيم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: 36]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: 18]، والجذر اللُّغويُّ منه:

(1) الراغب، المفردات: (أسا).
(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 136.
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فوت).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (فوت).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 197.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرح).
(7) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 383.
(8) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 306.

(خول) أو (خيل)، فالمختالُ: ما كان شديدَ الخُيَلاء[1]، والمُخْتالُ: مِن خالَ الرَّجلُ، فهو خائِلٌ ومُخْتالٌ، وأصل خيل: يدلُّ على حركةٍ في تَلَوُّنٍ؛ لأنَّ المختالَ في مِشْيَتِه يتلوَّنُ في حَرَكَتِه ألوانًا[2]، وذو الخيلاءِ: ذو الكِبْرِ والمَزْهوُّ المعجَبُ بنَفْسِه[3]، فالخيلاءُ معناه: الكِبْرُ والعُجْب[4]، والمعنى هنا: المتكبِّر الذي يَستَنكِفُ عن أقاربه وجيرانه وأصحابه[5]، وقيل: المختال هوَ الصَّلف التّيّاه الجهولُ، وإذا تعاظَم المَرْءُ بما عندَهُ، سواءٌ أكان على وجهِ الحقيقة أم الادِّعاءِ، فإنَّه يُسمّى: مختالًا[6]، ومعنى ﴿مُخْتَالٍ﴾ في الآية الكريمة: متكبِّرٌ معجَبٌ بنَفْسِه، يتباهى بما أوتيه مِن متاعِ الدُّنيا وزينَتِها[7].

5) ﴿فَخُورٍ﴾: صيغَةُ مبالغَةٍ على زِنَة (فَعول)، وجذره اللُّغويُّ: (فخر)، والفَخْرُ: هو إظهارُ مَناقِبِ الرَّجُلِ ومحاسِنِه، وما عُرِفَ عنهُ مِن كرَمٍ وشَهامَةٍ، فإذا ذَكَرَ المَرْءُ مآثرَ آبائِه، أو مفاخرَ نفسِه القَديمة؛ فَقَدِ افْتَخَر، والفخور: المُتَكَبِّر والمُتَعاظِم بِما يَمْلِكُه، أو يختصُّ به من خِصال، وعدَّ القَديم من الفِعال[8]، والأصل في الفاء والخاءِ والرّاء: يدلُّ على العِظَم والقِدَم، ومِن معاني الفخر أيضًا: تفضيلُ الشَّيء على غيرِه، والفخر في أصل معناه: المباهاة بما هو خارِجٌ عَن ذات الإنسانِ مِن مالٍ أو جاهٍ أو مكانةٍ دنيويَّة[9]، ومعنى ﴿فَخُورٍ﴾ في الآية: متباهٍ بما أوتيَهُ، يُظْهِرُ ذلك افتخارًا وتعاظمًا، وقيل: الفخور هو الذي يَنْظُر إلى النّاسِ بِعَيْنِ الاحتِقارِ والازدِراءِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لكيلا تَحْزَنوا حُزْنَ الجزَعِ، والأسى على ما فاتَكُم مِن حُظوظِ الدُّنْيا وزينَتِها، ولا تَبْطَروا بما أُعطيتُم مِن نعيمها وعوارضها، فما مِن أحدٍ إلّا وهو يَفْرَحُ، ويحزن، ولكن

(1) الخليل، العين، (خول).
(2) والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خيل).
(3) ابن سيده، المخصص: 3/ 400.
(4) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 2/ 93.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 885.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خيل).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 258.
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (فخر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (فخر).
(10) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 496.

اجْعَلوا فَرَحَكُم شكرًا يورِثُ مزيدَ النِّعم، وحُزْنَكُم صبرًا يجلِبُ عظيمَ الأجر، ثُمَّ خَتَمَ جَلَّ شأنه بالتَّحذير مِنْ أنَّه تعالى لا يُحِبُّ مَن تكبَّر بما أوتي من الدُّنيا، متعاظمًا بما في يدِهِ مِن مالٍ أو جاهٍ، مُفْتَخِرًا على العبادِ بِما هو زائِلٌ لا بَقاءَ لَهُ[1].

لا حُـزْنَ على فائِتٍ، ولا بطَر بِعاجِلٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ الآية عمّا قبلها:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ عمّا قبلهُ؛ لمجيئِهِ بيانًا لعلَّة مترتِّبةٍ عَلى ما سَبَقَ؛ إذْ إنَّ لامَ التَّعليلِ تُفيدُ جَعْلَ أوَّل الكلام سببًا لآخره، كما يُقال: قُمْتُ لأضْرِبَك، أي: كان القيامُ سببًا للضَّرْب، وهنا كذلك؛ فإنَّ اللّهَ سبحانه لمّا بيَّن أنَّ كلَّ ما في الكون جارٍ بالقَضاء والقدَرِ، مسطَّر في كتابٍ لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل؛ رتَّب على ذلكَ أثرًا نفسيًّا بديعًا، وهو ألّا يشتدَّ فرحُ المَرْءِ بِما أوتي، ولا يشتدَّ حُزْنُه بِما فاتَه؛ لأنَّ كِلا الأمرَينِ مكتوبٌ مقضيٌّ لا مَرَدَّ لَهُ[2].

التَّسليمُ بالقَدَرِ يُطفئُ لهيبَ الأسى، ويهذِّب نشوةَ الفَرَحِ

دلالَةُ التَّعبيرِ باللّامِ في قوله: ﴿لِّكَيْلَا﴾:

مِن خَصائصِ اللّام في لِسانِ العرَبِ دلالَتُها على التَّعليل[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾، فهي هنا جاءت لبيانِ علَّة ما قبلها؛ إذ المَعْنى: أنَّكم إذا أيقَنْتُم أنَّ كلَّ شيءٍ جارٍ بمقادير اللّهِ تَعالى مثبَتٌ في كتابِهِ لا يتغيَّر؛ خفَّ أسَفُكُم على ما فاتَ، وزالَ فَرَحُكُم المُفْرِطُ بِما أوتيتُم؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ ما في يدِهِ لا بُدَّ أن يزول يومًا؛ لم يشتدَّ جزعُهُ عند فَقْدِه؛ إذْ قَد هيَّأ نفسَهُ على احتمالِه، ومَن عَلِمَ أنَّ ما قُدِّر له مِنَ الخَيْرِ سَيَصِلُهُ لا محالةَ؛ لم يَعْظُم اغتباطُه عندَ نَيْلِه[4].

لام التَّعليلِ بينَ حِكْمَةِ القضاءِ واعتدالِ المَشاعِر

(1) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 40.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 467.
(3) أبو حيان، التذييل والتكميل: 11/ 173.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 479.

فائِدَةُ استِعمالِ (كي) في قولِهِ: ﴿لِّكَيْلَا﴾:

حـين يُـثـمـر الإيـمـانُ اتِّـزانًـا أمـامَ الـفَـقْـدِ والعَطاء

(كي) في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ جاءت في موضع العلَّة والسَّببيَّة؛ إذ المَعْنى: لأجلِ ألّا تَحْزَنوا حُزْنًا شديدًا زائدًا عن الحدِّ[1]، فَهي هُنا ربَطَت بينَ تقريرِ سابقِ التَّقديرِ في عِلْمِ اللّه تَعالى، وبينَ الثَّمرة المنشودَةِ منه، وهي تهذيبُ مَشاعِرِ المُؤْمِن حتّى لا يَطْغى عليهِ الأسى عندَ الفَقْد.

شَرَفُ المَبْنى وقوَّةُ المَعْنى، حين يجتمِعُ التَّعليلُ والتَّوكيدُ في حرفٍ واحدٍ

ويجوز في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا﴾ ألّا تكون للعلَّةِ المَحْضَة، بل هي واردَةٌ على سَبيلِ التَّأكيد[2]؛ تنزيلًا لموقِعِها مَنْزِلَة ما يُرَسِّخ المعنى، ويقوّيه، لا لمجرَّد بيان السَّبب وحده، وإنَّما تمحَّضت هنا في الاستعمال حرفًا ناصبًا؛ إذ لا يَسوغُ أن يدخُلَ حرفُ الجرِّ على مثل هذا التَّركيب[3]، وبذلك اجتمعَ في هذا الموضع شرفُ التَّعليل وقوَّة التَّوكيد؛ ليَجيءَ النَّهيُ عَن شدَّة الأسى والفَرَحِ أرسَخَ وأبْلَغَ.

وَيَجوزُ أن تكون (كي) باقيَةً عَلى مَعْنى التَّعليلِ مُطْلَقًا، سواءٌ أُفردت، أمْ سُبِقَت باللّام؛ إذ لَم يُستَعمَل هَذا الحرفُ في لسان العرَبِ إلّا في مَقامِ التَّعليل؛ إذ قَد يجتمع في التَّركيب لفظانِ مُتَوافِقان في الدَّلالة توكيدًا وتقويةً للمَعْنى[4].

سِرُّ رَسْمِ كلمة ﴿لِّكَيْلَا﴾ موصولَةً:

طمأنينةُ المُؤْمِنِ بينَ قدَرٍ مكتوبٍ وشُعورٍ منضبِطٍ

رُسِمت كلمة (كي) موصولَةً باللّام في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا﴾، فجاءت على صورةِ حرفٍ واحد، بخلاف مواضعَ أُخْرى، كقوله سبحانه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ [الحشر: 7]؛ إذ رُسِمت على حرفَيْن[5]، وهذا الرَّسم الموصولُ سيق؛ ليَدُلَّ على اتِّصال الغاية بكَمالِها؛ إذْ إنَّ دخولَ النَّفْي على المَعْنى الكلّيِّ يُفيد شمولَ النَّفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 1/ 443.
(3) ابن الخشاب، المرتجل، ص: 203.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 352.
(5) ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 1/ 342.

لجميعِ الأجزاء بلا استثناءٍ[1]، فليس المرادُ نفيَ الحُزْنِ عَن واقعةٍ مخصوصة، أو الفرح بعطاء بعَيْنِه، بل نفيُ الهيئة الكلّيَّة لِما يَعْتَري القلبَ، فلا يطغى الأسى عند الفَقْدِ، ولا يستولي الفرحُ عندَ العطاءِ.

دلالَةُ اقْتِرانِ (لا) بـ ﴿لِّكَيْلَا﴾:

(لا) في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ هي النّافيَة[2]، والمعنى: لكيلا يُحْزِنَكم الفائتُ حزنًا طاغيًا يجاوز حدَّ الصَّبر، ولا يبطركُم الفرحُ بِما أوتيتم بعد أن عَلِمْتُم أنَّ ما ينالُكُم مِن خير أو شرٍّ مكتوب مقدَّر لا يُخْطِئُكم، ولا يتخلَّف عَنْكُم[3].

لا يطغى الحزنُ، ولا يستبدُّ الفرحُ، فالمَكْتوبُ لا يُخْطِئُكُم

بَلاغَةُ إيجاز الحذفِ في قوله: ﴿لِّكَيْلَا﴾:

في قولهِ تَعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ الجملة متعلِّقة بمقدَّر دلَّ عليه السّياقُ، والتَّقديرُ: أعْلَمْناكُم بذلك لكي لا تأسوا... أي: إنَّ هذا الإخبارَ الحكيمَ إنَّما سيقَ لفائدَةِ تهذيب المدارك وتَقْويم العقول، حتّى لا يَجْزَعَ المرءُ عندَ المَصائب؛ لأنَّ مَن أيقَن أنَّ ما في يدهِ مِن نِعْمَةٍ دنيويَّة زائلٌ لا محالة؛ هان عليهِ فَقْدُه، ووطَّن نفسَه على احتمالِه[4]، فلم يَتَفاقَم حُزْنُه عندَ فواتِه.

الإيمانُ بالقَدَرِ يُعَلِّم النَّفسَ الصَّبرَ، ويُهَذِّبُ الشُّعور

سِرُّ التَّعبير بقوله: (لا تَأْسَوْا) دون (لا تحزنوا):

اختير التَّعبير بـ (لا تَأْسَوْا) دون (لا تَحْزَنوا)؛ لأنَّ الأسى فيه مَعْنى الجَزَعِ والذُّهول والاستنكارِ[5]، ولكونِ الأسى يخصُّ الشُّعور بالحُزْنِ على ما فات من الأمور[6]، فيدلُّ على أثر الفُقدان، بخلاف الحُزْنِ فإنَّه يكون للماضي والحالِ[7].

اختصاصُ الأسى بالجَزَعِ والذُّهولِ والاستِنكارِ

(1) شعير، الإعجاز القرآني في الرسم العثماني، ص: 144.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.
(3) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 1070.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.
(5) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 60.
(6) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 783.
(7) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 57.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الاستعلاء، وهوَ استعلاءٌ مجازيٌّ، وهذا أحَدُ معانيهِ في كلامِ العرَب[1]؛ إذ صوَّر الأسَى كأنَّهُ شَيْءٌ يَعْلو القلبَ، ويَستَولي على النَّفس، فكأنَّه يصوِّرُ الأسى، وهو جاثِمٌ فوقَ الرّوحِ مُثْقِلٌ لكاهِلِها.

شعورٌ جاثِمٌ يُثْقِلُ الرّوحَ، ويستَولي على النَّفْسِ

دلالَةُ التَّعْبير بـ ﴿مَا﴾ دونَ (الذي):

استُعمِلَ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه موصولٌ عامٌّ يُفيد الإبهامَ والشُّمول[2]، فيشمل كلَّ ما يُمْكِن أن يفوتَ مِن حُظوظ الدُّنيا وصوَرِها، صغيرًا كان أو كبيرًا، جليلًا أو حقيرًا، أمّا (الذي)؛ فهو أدلُّ على التَّعيين والتَّخصيص، ولو استُعمِلَ (الذي) هنا؛ لأوْهَمَ أنَّ الأسَى منهيٌّ عنهُ في شأن مخصوصٍ معلومٍ.

نَفْي الأسى عنِ الفائِت بجَميعِ صوَرِهِ

بلاغَةُ التَّعْبير بقوله: ﴿فَاتَكُمْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

التَّعبير بقولِه: ﴿فَاتَكُمْ﴾ ماضيًا دالٌّ على تحقُّقِ الفَوْتِ، ومادَّتُهُ تُشْعِرُ بأنَّ ما فاتهم كان قابلًا للتَّحصيل، وأنَّ الفائت قد سَعى له صاحِبُه، فَلَم يُفْلِح في نيلِهِ وتحصيلِهِ؛ إذْ غلبَهُ خروجُه عَن مُكْنَتِه[3].

الفائِتُ بينَ السَّعي إليهِ والعَجزِ في تحصيلِهِ

مَعْنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾:

الواوُ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ جامعة بين النَّفيَيْن، فالواوُ هنا عاطفةٌ فِعْلَ الفَرَحِ على فِعْلِ الأسى[4]؛ لتَدُلَّ على التَّوازُنِ النَّفْسيِّ المطلوب، فلا يَفْرَح الإنسانُ عندَ النِّعمة فرحًا يُخْرِجُه عَن طاعةِ اللهِ تَعالى أو يَحْجِبُه عَن حُقوقِها، بل إذا أدركَ أنَّ كلَّ ما أصابه، أو فاته؛ مقدَّرٌ بقَضاءِ اللهِ تَعالى وقدرِه، وأنَّ ما أخْطَأه؛ لَم يَكُن ليُصيبَهُ، وما

توازُنُ النَّفْسِ بينَ الأسى والفَرَحِ في ظِلِّ التَّسليمِ لحِكْمَةِ اللهِ تَعالى

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 48.

(2) الموصولُ الاسميّ نوعانِ، منهُ: ما يدلّ على النصّ والتعيين، وهوَ الذي والتي ونحوهما، ومنهُ: ما يدلّ على العمومِ والاشتراكِ، وهوَ ما ومنْ ونحوهما، و(ما) في الآيةِ مِنَ الضّربِ الثاني، يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.

أصابهُ؛ لَم يَكُن ليُخْطِئَه؛ صار قلبُه متَّزنًا، وهانَ عليهِ ما فاتَ، ولَم يَفْرَح بِما أصابَ[1].

سِرُّ التَّعبير بالفَرَحِ في قوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾:

ضَبْطُ الفرَحِ حمايَةً للنَّفْسِ مِن الطُّغْيانِ والعدوانِ

جاءَ الفرحُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾، بصيغة النَّهي الدّالِّ على ما يُستَقبَلُ مِن الزَّمان؛ ليكونَ قائمًا في كلِّ حينٍ، أي: لا تَستَكثِروا مِنَ الفرح والسُّرور بحيثُ يَجُرُّكم إلى الطُّغيان والعدوان[2]، بل يكون الفرحُ مقرونًا بالاعتدال والتَّسليم بقضاء اللّهِ تَعالى وقَدَرِه.

معنى الباءِ في قولهِ: ﴿بِمَآ﴾:

زوالُ النِّعَمِ يَقتَضي ضَبْطَ الفرَحِ لا استِكثارَهُ

مِن معاني الباء في لسانِ العرَبِ السَّببيَّةُ[3]، وهي هنا دالَّةٌ على العلَّة والسَّبب، ومعنى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: لا تفرحوا بسبب أن أعطاكم مِنَ النِّعم، فإنَّ هذه النِّعم زائلَةٌ قريبًا، وكلُّ زائل لا يستحقُّ أن يكون محلَّ فَرَحٍ مبالَغٍ فيه[4].

سِرُّ التَّعْبير بـ (ما) في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مع الصِّلةِ:

لا حُزْنَ يُثْقِلُ القلبَ، ولا فرَحَ يَطْغى على الطّاعةِ

جملةُ الصِّلَةِ في قولِهِ: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مُشْعِرَةٌ بأنَّها نِعْمَةٌ نافِعَةٌ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ مقام المُؤْمِن مِنَ الأدب بعدَ حُلول المصيبة، وعند انهيالِ الخَيْرات هو ضبطُ النَّفس، فلا يحزن على ما فات، ولا يبطر بما ناله مِن خيرات، وليس المقصود مِن ذلك تركَ السَّعي لنوال الخيرِ أو اجتنابِ الشَّرِّ[5]، والتَّعبير بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، فيها إبهامٌ يعطيها عُمومًا وشمولًا، بحيث تتناول كلَّ ما يُعطاهُ الإنسانُ في الدُّنيا مِن متاع وزينَةٍ.

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 377.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 532.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 39.
(4) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 211.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

دلالَةُ التَّعْبير بـ ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾:

جلالةُ العطاءِ الرَّبّانيّ

جاءَ التَّعبيرُ بفعل الإيتاءِ في قوله: ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ دون (أعطاكم)؛ لدلالتها على مَعْنى المَنْحِ والمِلْك والخَول[1]، أي: إنَّ ما أُعْطيتُموه أصبحَ تحتَ تصرُّفكم ومِلْككم، كما أنَّ في التَّعبير بالإيتاءِ تعظيمًا للمُؤْتى؛ إذ الإيتاءُ في الاستعمالِ القرآنيِّ خاصٌّ بالأشياءِ العظيمةِ الجليلةِ.

ومادَّة الإتيانِ في أصْلِها تفيدُ مَعْنى الإحضارِ والإيصال، فهي أوسَعُ دلالةً مِن الإعطاء الذي يَقْتَصِرُ على تمليك الشَّيء ونقلِه فحسب؛ فجاء لفظ ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾؛ ليشير إلى أنَّ ما وصل إلى العباد مِن متاع الدُّنيا، لم يكُنْ مِن مَحْضِ كَسْبِهم، ولا بِجُهْدِهم المجرَّد، بَل أُحضِر إليهم، وأوصِل بقدَرِ اللهِ تَعالى، حتّى صار حُضورُهُ لديهم كأنَّه لازِمٌ لَهُم.

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ ماضيًا:

تحقُّقُ وُقوعِ العَطاء والفراغِ مِنْهُ

استُعْمِل الفعلُ ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ بصيغة المُضيِّ دون المُضارِع؛ لدلالته على التَّحقُّقِ في الثُّبوت؛ إذْ إنَّ صيغة الماضي تُفيد وقوعَ العطاء وانتهاءَهُ بالفِعْلِ[2]، بخلافِ الفِعْلِ المضارع فإنَّها تدلُّ على الاستمرارِ أو الحُدوث المستقبليِّ.

بلاغة التَّتميم بجملة ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أدبُ المؤمِنِ بينَ يقينِ المصيبةِ وهُدوء المسَرَّةِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ تتميمٌ لقَوْلِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾؛ إذ المقصودُ مِن الكلام أنَّ المُؤْمِنَ لا يَيْأس عندَ حُلول المصائب؛ لأنَّهُ يَعْلَم أنَّ كلَّ ما أصابه من مصيبَةٍ مَسْطورٌ في الكتاب، وكذلك المسرّات تُنال بطريق الاكتفاء، فالمَسرّات التي تحصُلُ للمَرْءِ دونَ ترقُّب أشدُّ أثرًا في تأكيدِ أدَبِهِ واستِقامَتِه بطريق المُقابلَةِ[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 197.
(2) الشنقيطي، العذب النمير: 5/ 562.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.

دلالَةُ تكرار حرف النَّفي (لا):

كُرِّرت (لا) النّافيةِ مع فعل الفرَح بعدَ ذِكْرِها مع فعل الأسى؛ لإفادَةِ توكيد النَّفي، وفَصْلِ كلٍّ منهما على حدة، أو هوَ توكيدٌ لعدَمِ وُقوعِ الاثنين معًا[1].

أثَرُ تَعَدُّد القراءاتِ في قوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾:

قرأ جمهورُ العشرةِ ﴿ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ بالمدِّ، وقرأ أبو عمرٍو بالقصر ﴿أَتَىٰكُمۡۗ﴾[2]، والحجَّة لمن مدَّ - وهو الأكثر - أنَّه أراد به مَعْنى الإعطاءِ التّامِّ، والحجَّة لمن قصَر أنَّه لمّا تقدَّم قبلَه قولُه: ﴿مَا فَاتَكُمۡ﴾؛ جاء الرَّدُّ عليه بـ (ولا تفرحوا بما جاءكم)، فالقصر مناسِبٌ لفِعْلِ الفواتِ، وملائم لسياق التَّوازن بين الحُزْنِ والفرَح[3].

الإعطاء التّامُّ في قراءة المدِّ، والمقابلة المعنويَّة في قراءة القَصْرِ

وعلى هذه القراءةِ - قراءةِ المدِّ - يكون عائدُ الموصول محذوفًا؛ لأنَّه ضميرٌ متَّصل منصوبٌ بالفِعْلِ، والتَّقدير: (بما آتاكموه)، وفيه إدماجُ المنَّة مع الموعظة؛ تذكيرًا بأنَّ الخيراتِ من فضل الله تَعالى، وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة واحدةٍ على أنَّه من الفِعْلِ (أتى)، ويكون عائدُ الموصولِ الضَّميرَ المُسْتَتِرَ المرفوعَ بالفعل (أتى)، وفي هذه القراءة يُقابل ﴿أَتَىٰكُمۡۗ﴾ بـ﴿فَاتَكُمۡ﴾، وهو محسِّنُ الطِّباقِ، فلِكِلْتا القراءتينِ محسِّنٌ بليغٌ[4].

في قراءة المدِّ إدماجُ المنَّة مَعَ الموعظةِ، وفي قراءةِ القَصْرِ مقابلَةٌ لِفِعْلِ الفَوْتِ

بلاغَةُ الطِّباق بينَ الأسى والفَرَح:

بين الأسى والفرح في قوله سبحانه: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، طباقُ إيجابٍ على غاية من التَّساوي والموازنَة[5]؛ إذ جُمِعَ بينَ حالَيْن متضادَّين، وهما الحُزْنُ على الفائت،

المؤمنُ لا تستخفُّه صدماتُ النُّقصانِ ولا تَسْتَعبدُهُ لذّات العطاءِ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّري: 11/ 353.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 626، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 384.
(3) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 343.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 413.
(5) العسكري، الصناعتين، ص: 308.

والبهجَةُ بِما هو آتٍ، فجاء الطِّباقُ هنا في غاية التَّوازن والموازنة؛ ليكون المعنى في أكمل صورة؛ إذِ المقصودُ تربيَةُ القَلْبِ على الاعتدال والاتِّزان، فلا يَغرقُ في مرارة الفَقْدِ.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بين آية الحديدِ وآيَةِ آلِ عِمْرانَ:

دقَّـــةُ الـبـيـانِ القُرآنيِّ في انتقاء الألفاظِ المُلائِمَة لسياقاتِها

قال اللهُ سُبحانَه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾، وقال في سورة آل عمران: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ [آل عمران: 153]، فاختير لفظُ الحزنِ ههنا، ولفظُ الأسى في سورة الحديدِ، وخُصَّت سورة الحديد بذكر نفي الفَرَحِ، ولم يُذكَر ذلك في آل عمرانَ.

ووجهُ المغايرة بينَهما أنَّ آية آل عمرانِ تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: 153]، فلمّا كان ذلك ممّا يُحْزن، ولا تعلُّق له بما يُفْرِح، وكان السّياق متعلِّقًا بغَزْوَةِ أُحُدٍ التي فات المسلمين فيها النَّصْرُ بعدَ أن ظهَرَت بوادِرُه، وأصابَهُم القَتْلُ والجِراح، وكان ذلك ممّا يُحْزِن؛ ناسبَهُ قولُه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ﴾ [آل عمران: 153]، ولم يُذْكَر (ولا تفرحوا).

وأمّا آيةُ الحديدِ؛ فقَد تَقَدَّمها قولهُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فلمّا كانت المُصيبَةُ هي ما يُصيب العبدَ مِن الخَيْر والشَّرِّ، وكان التَّكاثُر في الأموال والأولاد ممّا حَظيَ بهِ كثيرٌ مِن أهْلِ الكُفْر دون المؤمنين، وكان ذلكَ مِمّا يَزيدُ شدَّةَ حُزْنِ أهلِ الإيمان على ما فاتَهُم؛ ناسَبَهُ قولُه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، ولمّا كان ما آتاهُ اللهُ تَعالى المؤمنينَ مِنَ الخير قَد يُفْرِحُهُم، فَيَجْعلهم يَغْفَلون عن شُكْرِ الله سُبحانه؛ ناسبه قولهُ: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾[1].

(1) سعد محمد، بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 340.

معنى الواو في جملة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾:

استمرارُ النَّهي عن الغلوِّ في الحُزْنِ والفَرَحِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةٍ مقدَّرة[1]: (لئلّا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، فإنَّ اللّه لا يحُبُّ كُلَّ آسٍ فَرِحٍ)، (فَإنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ يَؤُوسٍ كَفورٍ)، فيؤكِّد استمرارَ النَّهي عن الصِّفات المذمومةِ، ويُظْهِرُ ارتباطَها بسُلوك القلبِ والنَّفس، ممّا يَضْبِطُ اعتدالَ المُؤْمِن بين الحُزن والفرَح.

الفَرَحُ الذي يُخرج عن الطّاعة، ويُظهر الفخرَ مذمومٌ شَرْعًا

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ﴾، دالَّة على الحالِ[2]، فدلَّ بذلك على أنَّ اللّهَ تعالى ذمَّ الفرَحَ الذي يَجْعَلُ حالَ صاحبِه مُخْتالًا فخورًا بَطِرًا[3]، مُحَذِّرًا مِن أثَر الغُرور الذي يترَتَّب على الانغماسِ في لذّات الدُّنيا.

استئنافٌ لإفادة استقلالِ النَّهي عن الاختيالِ عَن سياق الشُّعور

ويجوزُ أن تكون الواوُ في الجملةِ استئنافيَّة[4]، فتكون الجملةُ مستقلَّةً بذاتِها، مُؤْذِنَةً بأهمّيَّتها، ودالَّة على عدم ارتباطِها بِما قبلَها لفظًا، ليكون النَّهيُ[5] عن الاختيال والفخر على نحو خاصٍّ ومستقلٍّ عن سياقِ الحُزْنِ والفرح.

بلاغةُ التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾:

المبالغةُ في الفرَحِ بالدُّنيا بريدٌ إلى الفَخْرِ والخُيلاءِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ تذييلٌ لِما سبَق؛ إذ إنَّ مَن يَفْرَحُ بحظٍّ مِنَ الدُّنيا، ويَعْظُم في نفسِه؛ يُصْبِحُ مختالًا، ويفتَخِرُ بِما أُعطي، ويتكبَّر على النّاسِ[6]، وهذا تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِه بنفسِه، وعدم افتقارِه إلى ما قبلَهُ في الكشْفِ عَن تمام معناهُ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 297.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 201.
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 354.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 155.
(5) وجهُ النَّهي ههنا عن الاختيال والفخر في التَّعبير بأنَّ اللهَ تعالى لا يُحبُّ أصحابَهما، وهو من صيغَ النَّهي شرعًا، يُنظر: نعمان جغيم، طرق الكشف عن مقاصد الشرع، ص: 65.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 480.

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ الأحسَنِ (اللهُ):

الكَمالُ الإلهيُّ يقتضي تهذيبَ النَّفسِ عَن الفَخْرِ والاختيالِ

عُبِّرَ بالاسم الأحسَنِ (اللهُ)؛ للإشارةِ إلى أنَّه سبحانه المتَّصف بالكمالِ المطلقِ[1]، الذي له الصِّفات العليا كافَّةً، فلا يليق بخلقِه ما يُخالِفُ عدلَهُ وحِكْمَتَهُ، كاختيالِ الإنسانِ وفَخْرِه بما أُعْطِيَهُ مِن نِعَمٍ.

دلالَةُ تقديمِ المُسْنَدِ إليهِ (اللهُ) وتأخيرُ المسنَدِ الفِعْليِّ:

المرجعيَّةُ المُطْلَقَةُ للهِ تعالى في النَّهْيِ عَن الكِبر والغُرور

قُدِّم الاسم الأحسَن (اللّه) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ على اللهِ تَعالى وحدهُ، فيُزيل الوهمَ عَن ذِهْنِ المُخاطَب[2] بأنَّ الموقِفَ مَتْروكٌ لغيرِه، مؤكِّدًا أنَّ الحُكْمَ في هذا النَّهي مرجِعُهُ إلى اللهِ وحْدَهُ.

وفي تَأْخيرِ المسنَدِ الفعليِّ تأكيدٌ للمعنى وتقويَةٌ لَهُ، ووجه ذلك أنَّ فيه تكرارًا للنِّسبةِ، فقد نُسِبَ الحُبُّ المنفيُّ إلى الاسمِ الأحسن (اللّه)، ثُمَّ أُسنِدَ إلى ضميرِهِ المستترِ.

دلالَةُ التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾:

تحذيرٌ مِنَ الفرَحِ الذي يُنسي صاحبَهُ الكتابَ، ويُخرِجُه عن الاتِّزانِ

الاسمُ الأحسَنُ (اللّهُ) مبتدأٌ، وجملةُ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ خبرٌ له[3]، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة تحذيرٌ مِنَ الفرح المبالَغ فيه، في سياق بيانِ أنَّ كلَّ ما ينالُهُ المَرْءُ ثابتٌ في الكتاب، مؤكِّدًا أنَّ المراد من الفَرَح هو ذلك الذي يَغْلِب صاحبَه على نفسه، فيبلغُ بِهِ حدَّ الاختيال والفخر[4]؛ ليذكِّر بضرورةِ الاعتدالِ، وضَبْطِ المَشاعِر، فجاء هذا التَّركيب؛ ليَدُلَّ على أنَّ بُغْضَ اللهِ تَعالى للمُخْتالِ الفَخور أمرٌ راسِخٌ ثابتٌ لا يتغيَّر، لا يختصُّ بزمانٍ دونَ زمان، ولا بحالٍ دونَ حال، بل هو حُكْمٌ مطَّرد دائِمٌ باقٍ ما بَقيَت هذه الصِّفاتُ المَذْمومَةُ.

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 213.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 353.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 412.

سِرُّ العُدولِ عَن (يُبْغِضُ) إلى ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

نـفـيُ المـحـبَّـةِ أبلَغُ مِن إثباتِ البُغْضِ

لَمّا كانَ حُبُّ اللهِ سُبْحانَهُ الذي يَلْزَمُهُ حُبُّ النّاسِ مَحْبوبًا إلى النُّفوس، وكانَ فَواتُ المَحْبوبِ أشَقَّ على النُّفوسِ مِنْ وُقوعِ المَحْذورِ، وكانَ حَرْفُ النَّفْي ﴿لَا﴾ مُخْتَصًّا بالدُّخول على المُضارِعِ المُسْتَقْبَلِ؛ قال اللهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ولو ورَدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (واللهُ يُبْغِض)؛ لاحْتَمَل تقييدَهُ بالحالِ، فكانَ التَّعبيرُ بِنَفْيِ المَحَبَّة أوقعَ في النُّفوس وأزْجَرَ، وأدَلَّ عَلى الدَّوام والاستِمْرارِ.

دلالَةُ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿كُلَّ﴾:

نفيُ المحبَّةِ عَن كُلِّ مختالٍ

قول اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لا يُفهَم أنَّه لا يُحِبُّ بعضًا دون بعضٍ، بَل المراد: كلُّ فرد من هؤلاء المختالين، ويُرَدُّ بذلكَ على قولِ عبد القاهرِ مِن أنَّ إدخال ﴿كُلَّ﴾ في حيِّز النَّفي لا يصلح إلّا إذا وُجِدَ بعضُه دون بعضٍ، وما ذكره عبد القاهر حكمٌ أكثريٌّ، لا كليٌّ[1].

دلالَةُ إضافَةِ ﴿كُلَّ﴾ إلى ﴿مُخْتَالٍ﴾:

نَـفـيُ المـحـبَّـةِ يَتَعَرَّض للجُمْلَةِ ويَـسـتَـغـرِق الأفرادَ

أضيفَ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ إلى ﴿مُخْتَالٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللهَ تَعالى لا يُحِبُّ أحدًا مِنَ الكافِرين الآثِمين؛ لأنَّ ﴿كُلَّ﴾ مِن صيَغِ العموم، وهي موضوعَةٌ لاستغراقِ جميعِ أفرادِ ما تُضاف إليه، وليسَت للدَّلالة على مجموعَةٍ مُجْتَمِعَة؛ لذلك يُقال: إنَّها للكلِّ الجَميعيِّ، وأمّا الكلُّ المجموعيُّ؛ فلا تُستَعمل فيه ﴿كُلَّ﴾ إلّا مجازًا، فإذا أُضيفَت ﴿كُلَّ﴾ إلى اسم استَغْرَقَت جميعَ أفرادِه، سواءٌ أكان ذلك في الإثباتِ أو النَّفْي، وإذا دخل النَّفيُ على ﴿كُلَّ﴾؛ كان المعنى عمومَ النَّفي لسائرِ الأفراد؛ لأنَّ النَّفي يتعرَّض للجُمْلَة، ويظلُّ مدلولُها قائمًا، إلّا أنَّه يتكيَّف بالسَّلب عوضًا عن الإيجاب، فإذا قلت: (كلَّ الدّيار ما

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 187.

دَخَلْتُه)، أو (لَم أدخل كلَّ دار)، أو (كلَّ دار لم أدخل)، أفاد ذلك نفيَ دخولِك أيَّ دارٍ مِنَ الدّيار[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿مُخْتَالٍ﴾:

المَشْيُ المُتعاظم تُرْجمان البَطَر والافتخارِ بالنِّعَمِ

لفظُ ﴿مُخْتَالٍ﴾ في الآيةِ يُرادُ به المختالُ في مِشْيَتِه تكبُّرًا وتعظُّمًا، وفي التَّعبير به بيانٌ لِلبَطَر والغُرور المذموم، وأمّا المؤمِنُ؛ فيَنْبغي أن يتواضَع للهِ ﷻ، ويَشْكُرَه، ويُثْنيَ عليه[2]، محافظًا على الاعتدالِ والانقيادِ لأوامرِه.

سِرُّ استعمالِ وصفِ ﴿مُخْتَالٍ﴾ دون (متكبِّر):

المُخْتالُ أشدُّ مبالغةً في بيانِ التَّعالي على الخَلْقِ مِن لفظِ المُتكبِّر

اختارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿مُخْتَالٍ﴾ دون (مُتَكَبِّر)؛ لأنَّ لفظَ ﴿مُخْتَالٍ﴾ أبلَغُ في المعنى، فهو يدلُّ على المبالغة في الاختيالِ والتَّكبُّر على الخَلْقِ بسُلوكِه وتصرُّفه، وقال بعضُ أهل العلم: إنَّه يُطْلَقُ على مَن وجَدَ لنفسِه مزيَّةً عندَ النّاس[3]، فاستَغَلَّها في التَّفاخر والتَّعاظُم الذّاتيِّ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿فَخُورٍ﴾:

وصفٌ يكشِفُ التَّفاخُرَ بالنِّعَمِ الظّاهرةِ

عَدَل البيانُ القرآنيُّ عن وصف (مُتَفاخِر) إلى ﴿فَخُورٍ﴾؛ لأنَّ الفَخور هو الذي يَفْتَخِر بما أنعمَ اللهُ تعالى عليه بينَ النّاس، فيكون غرورُهُ مبنيًّا على النِّعم الظّاهرة، بينَما يُحِبُّ اللهَ سُبحانَهُ مَن يَشْكُرُه عليها بالتَّوسُّع في إحْسانِه إلى عِبادِه[4]، فتكون الفضائِلُ مَصْدَرَ تقديرٍ للنِّعْمَةِ لا وسيلة للكِبْرِ.

شدَّةُ الفَخْرِ والمبالَغَة في التَّعاظُمِ الذّاتيِّ تُفسِدُ أدبَ العبوديَّة

وعُبِّر بوَصْفِ ﴿فَخُورٍ﴾ أيضًا؛ لأنَّ معناه شدَّةُ الفَخْرِ على النّاس[5]، أي: إنَّ صاحِبَها يبالِغُ في إظهارِ العظمَةِ والتَّعظيم الذّاتيِّ أمامَ الآخرين، محذِّرًا من أثَرِ الغُرور على النَّفس، وسلوكها تجاهَ النّاس.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 91 - 92.
(2) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 243.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 9/ 21.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 533.
(5) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 348.

سِرُّ تَقْديمِ ﴿مُخْتَالٍ﴾ على ﴿فَخُورٍ﴾:

الاختيالُ مِن بقايا رُؤْيَةِ النَّفْسِ، والفخر ثمرةُ إدراكِ النِّعمة والاستعلاءِ بها

قُدِّمَ ﴿مُخْتَالٍ﴾ على ﴿فَخُورٍ﴾؛ لأنَّ الاختيالَ مِن علاماتِ بَقاءِ النَّفْسِ ورُؤْيَتِها، بينَما الفخرُ ناتجٌ عَن إدراكِ ما يَمْتَلِكُه الشَّخص، ويَستَدعي التَّفاخر[1]، فالتَّقديم يوضِّح أنَّ الغرور يَظْهَرُ أوَّلًا في التَّصرُّف والسُّلوك قبلَ أن يَتَجَسَّد في الشُّعور بالفَخْر.

المختالُ أخصُّ مِنَ الفخور، فالاختيالُ فِعْلٌ ظاهِرٌ، والفَخْرُ شُعورٌ باطِنٌ

ومِن مَعاني هذا التَّقديم أنَّ المُخْتالَ أخصُّ مِنَ الفخور؛ إذ يخصُّ الفعْلَ والسُّلوك الظّاهر، بينَما الفخورُ يشمَلُ العَقْلَ وغيرَه مِنَ المَشاعر الدّاخليَّة[2]، فالتَّقديمُ يُبْرِزُ أثَرَ الغُرور في المَظْهَر العَمَليِّ قبل أن يَظْهَرَ في القَلْبِ أو الفِكْر.

دلالَةُ الجَمْعِ بينَ الوَصفَيْنِ مِن غيرِ عَطْفٍ:

اجتماعُ الصِّفاتِ المَذْمومَةِ في الكافِرِ، والتَّحذير مِن الغُرورِ المركَّب

في قوله تعالى: ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وصْفانِ مَجْموعانِ مِن غيرِ عطفٍ، وهما دالّانِ عَلى أنَّ كلَّ وصفٍ يُضيف معنًى خاصًّا، ويجوز أن يكون هذا كلُّه وصفًا للكفّار، كأنَّه يقول: لا يحبُّ كلَّ كافِرٍ[3]؛ ليشمل النَّهيُ عَن كلِّ مَن يَجْمَعُ بينَ الاختيال والفَخْر، فتَظْهَر شدَّة المذمَّة في هذه الصِّفات.

دلالَةُ التَّعبير بالاسمِ في قولِهِ: ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾:

أشدُّ ما يكونُ ذمُّ الاختيالِ والفَخْرِ؛ إذا كانا وصفَيْنِ ثابتَيْنِ

عُبِّر بالاسم في قوله: ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ دون الفعلِ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ اللّهَ تعالى لا يُحِبُّ من اتَّصف بهاتين الصِّفتين - وهُما الاختيال والافتخار[4] - على وجه الدَّوام والثُّبوت؛ لأنَّ الإنسان قد تعرضُ له أحوالٌ تظهر فيه هاتانِ الصِّفتانِ على وجهِ التَّأقيتِ لا الدَّوام، ثُمَّ سُرعانَ ما يعدِلُ عمّا عرضَ له من الصِّفاتِ الخسيسَة.

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 544.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 252.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 533.
(4) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 211.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظَي ﴿مُخْتَالٍ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾:

نُكِّر لفظا ﴿مُخْتَالٍ﴾ و﴿فَخُورٍ﴾، من قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ ليكونَ أوْعَب وأشمَلَ لِكُلِّ مَنِ اتَّصف بِوَصْفِ الاختيالِ أوِ الفَخْر؛ لِوُقوعِ اللَّفظَين في سياق النَّفْي.

شُمولُ الحُكْمِ كُلَّ مُختالٍ وكُلَّ فَخورٍ

سِرُّ اختلافِ الفاصلةِ مع فاصلةِ سورةِ لُقْمانَ:

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وقال في سورة لُقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: 18]، نجد أنَّ الفرق يرجِعُ إلى زيادةِ ﴿إِنَّ﴾ [لقمان: 18] في آية لقمان؛ إذ تدلُّ (إنَّ) على التَّوكيد، ويعود ذلك إلى ذكر صفاتٍ عدَّةٍ تدعو إلى الفَخْرِ والاختيال أكثرَ ممّا هو في آية الحديدِ، مثل رفعِ الصَّوت، والمشي مرحًا في الأرض، والمشي بسُرْعَة، فكان مناسبًا زيادةُ أداةِ التَّوكيدِ؛ لتقويةِ النَّهي والتَّحذيرِ[1].

زيادة (إنَّ) في آية لقمانَ توكيدٌ يُناسِبُ كثرة مظاهِرِ الفَخْرِ والاختيالِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأسى والأسَف والحُزْن:

في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ورود لفظ الأسى دون الحزن أو الأسف دقيقٌ في الدَّلالة.

الأسى يدلُّ على الحزن المصاحِب للغمِّ على الفائت، وهو إحساسٌ نفسيٌّ يلازم القلب بلا تثاقُلٍ أو غلظة[2]، وفيه مَعْنى الجَزَعِ والذُّهولِ والاستنكارِ، يقال: أسيتُ عليه، أي: تلقَّيتُ الفَقْدَ بغَمٍّ ووَجَعٍ نفسيٍّ، وهو ما يراد من توجيه آيةِ سورة الحديدِ في تذكير الإنسانِ بعدم ملازمةِ الهمِّ على ما فات.

تهذيبُ النَّفسِ عندَ الفَقْدِ، وتلطيف الغمِّ دونَ ثِقَلٍ أو غضبٍ، بما يوافِقُ مقامَ الرِّضا والتَّسليمِ

أمّا الحزنُ؛ فمفهومُه أعمق وأغلظ، فهو تكاثفُ الغمِّ وغِلَظُه؛

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 354.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).

تشبيهًا لَهُ بثِقَلِ الأرض وصلابَتِها[1]، وقد يعيق النَّشاطَ العقليَّ والنَّفسيَّ، فلا يليق بالمعنى المراد من النَّصِّ القرآنيِّ في سورة الحديدِ القائمِ على التَّوجيه والتَّطمينِ.

والأسف يتضمَّن غالبًا شعورًا بالغضب أو الغيظ على الفائت، كما في قول الآسِف الغضبان المتلهِّف على الشَّيء[2]، وهو لا يناسب مقام التَّوجيه الرَّبانيِّ اللَّطيف الذي ينهى عن انقيادِ النَّفس للفقد، ويحثُّ على الرِّضا والتَّسليم.

ومن هنا جاء اختيار لفظِ الأسى؛ ليكون أبلغَ في تصوير الغمِّ على ما فاتَ، بعيدًا عن الثِّقَلِ أو الغضب، موافقًا لطبيعةِ التَّوجيه القرآني الرَّحيمِ.

الفرَح والبَطَر:

الفَرَحُ يَشْمَلُ السُّرور النَّفسيَّ العارِضَ، وقد يكون بما لا نَفْعَ فيهِ ولا لذَّة دائمة، كما في فرح الصَّبي بالرَّقص أو العَدْوِ أو السِّباحة، وهي متعة عابرة قد تُتْعِبُه أو تؤذيه، لكنَّها تُسمّى فرحًا؛ لأنَّها إحساسٌ بالسُّرور والبَهْجَة[3]، أمّا البطَرُ؛ فمَعْناهُ: سوءُ استِعمال النِّعمة، ويدلُّ على الغلوِّ فيها وتعظيمِها بوجْهٍ يخرُج عن الاعتدال، فهو يَحْمِلُ معنى الجحود والاعتدادِ المذموم، كما في قول أهل اللُّغة: البطر شقُّ الشَّيء، واستعماله سوءًا[4].

نهيٌ عن الغَفْلَةِ لا عَنِ السُّرور، وتوجيه إلى الرِّضا دون اعتدادٍ أو سوءِ استِعمالٍ

فالفرق الجوهريُّ إذًا: أنَّ الفرَحَ إحساسٌ مجرَّدٌ بالبهجة والسُّرور، لا يُحْكَمُ على استحقاقها أو سوءِ استِخْدامِها، بخلافِ البَطَرِ فإنَّ فيه نوعًا من التَّكبُّر والاعتدادِ بالنِّعمة، وهوَ يمسُّ البُعْدَ الأخلاقيَّ والتَّوجيهيَّ للنَّفس، ومن هنا جاء التَّعبير بـ ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾؛

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 186.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 277.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102 - 103.

ليهذِّب النُّفوس عن الاعتمادِ على النِّعم الزّائلة، ويقيها من الغَفْلَةِ والاعتداد، دون تحميلِ مَعْنى الذَّمِّ المباشر الذي في البطَرِ.

الاختيال والتَّكبُّر والفَخْر:

نهيٌ عن التَّكبُّر فِعْلًا وقولًا، وتوجيهٌ إلى التَّواضع الذي يليقُ بضَعْفِ الإنسانِ أمامَ جلالِ الخالِقِ

الاختيالُ: هو التَّكبُّر الحركيُّ، أي: مشيةُ البَطَر والزَّهو بالهيئة، كما يظهر في حركَةِ الخَيْلِ التي سُمّيت خيلًا لاختيالها، وعندما يركَبُ الفارِس يُبْرِزُ تَبَخْتُرَهُ في حركةٍ مرئيَّة واضحة.

وأمّا الفَخْرُ؛ فهو التَّكبُّر القوليُّ، أي: التَّفاخر بالمناقِبِ والمُجادلة بِما يَرْفَعُ مِن شَأْنِ المَرْءِ على السّامع[1]، في حركَةٍ مَسْموعَةٍ تَظْهَرُ في الكلام المبالغ فيه عنِ الفِعْلِ والإنجاز، فالمختالُ متكبِّر بالفِعْلِ فقط، والفخور متكبِّر بالقول، أو بالقول والفعل معًا، وهما وصفان نَفْسيّان مذمومان[2]، واختلافهما عن التَّكبُّر في اللُّغة: أنَّ الكِبْرَ يدلُّ على إظهار عظمة الشَّأن، ففي حقِّ الله تعالى مدحٌ؛ لأنَّ شأنه عظيم، أمّا في حقِّ البشَر؛ فهو ذمٌّ؛ لأنَّ شأن الإنسانِ صغيرٌ، ولا يليق به التَّفاخر، وليس له بأهل[3]، ومن هنا جاءت الآية لتجمع بين الذَّمِّ النَّفسيِّ الحركيِّ والذِّهنيِّ، محذِّرة من كلِّ صوَرِ التَّعالي الظّاهريَّة والباطنيَّة، فالاختيالُ والفَخْرُ صِفَتانِ نفسيَّتان مذمومتانِ تُؤثِّران في سُلوكِ الإنسانِ وعلاقَتِه بالآخرينَ.

(1) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 32.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/ 207.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 444.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"